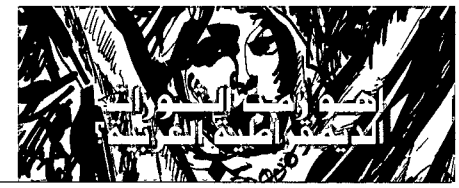

فلسطين والثورة المصريّة: ملاحظات من غزّة

□ حيدر عيد

«سيخرج من صفوف هذا الشعب أبطالٌ مجهولون يشعرون بالحريّة، ويقدّسون العزّة، ويؤمنون بالكرامة» (جمال عبد الناصر)

عندما سُئلتُ من قِبل بعض المتضامنين الدوليين عن تأثير سقوط نظام مبارك في قطاع غزّة، كان جوابي على الفور أنّ نهاية نظام مبارك ستؤدّي، بالتأكيد، إلى انتهاء الحصار المميت على قطاع غزّة المفروض منذ العام ٢٠٠٦.

ولكنّنا لا زلنا ننتظر!

❖ ❖ ❖

لقد كان النظامُ المصريّ المخلوع حريصًا أشدّ الحرص على إبقاء الفلسطينيين محاصَرين داخل قطاع غزّة بحراسةٍ إسرائيليّة. بل إنّ وزير خارجيّته، أحمد أبو الغيط، قال إنّ مصر ستَقطع أرجلَ مَن يدخلون إلى مصر من القطاع لأنّهم يُعرّضون «أمنَ مصر القوميّ للخطر»! وبالطبع كان أبو الغيط يتحدّث عن الأطفال والنساء والرجال الجياع ـ الأبطال الذين أقدموا، في حادثةٍ بطوليّةٍ غيرِ مسبوقة عام ٢٠٠٨، على هدم الجدار المصريّ على حدود القطاع، ودخلوا مدينةَ العريش المصريّة لشراء الحليب والطعام والدواء، ثم عادوا بسلام إلى القطاع، من دون تسجيل أيّة حادثةٍ مخلّة بالنظام. بل أطلق النظامُ المخلوعُ العنانَ للمتحدّثين باسمه للتشهير بأهل القطاع من أجل تبرير إغلاق معبر رفح، فوصفو الغزّاويين بالإرهابيين والمخرّبين الذين يشكّلون خطرًا على أمن مصر القوميّ. كما أنّ وزير الداخليّة السابق حبيب العادلي، الذي يحاكَم الآن بتهم فسادٍ ورشاوى وقتل متظاهرين، اتّهَم «بعضَ العناصر الحمساويّة المتسلّلة» بالوقوف وراء المظاهرات التي انطلقتْ في مصر يوم ٢٥ يناير.

وفي وقت سابق كان الوزير نفسُه قد اتهم «جيشَ الإسلام الفلسطينيّ في غزّة» بالوقوف وراء تفجير كنيسة القدّيسين في الإسكندريّة؛ وقد تبيّن في ما بعد أنّ مَن خطّط ونفّذ هذا العملَ الإرهابيّ، الذي راح ضحيّتَه أكثرُ من ٢١ قتيلاً من المصريين الأقباط، هو حبيب العادلي نفسُه وجهازُ أمن الدولة من أجل خلق أجواء طائفيّة متوتّرة في مصر.

لقد أنهت الثورةُ المصريّةُ العظيمةُ هذه المهزلة!

❖ ❖ ❖

في العام ٢٠٠٦ توجّه الفلسطينيون في الضفّة وغزّة (وهم يشكّلون ثلثَ الشعب الفلسطينيّ) إلى صناديق الاقتراع وصوّتوا بغالبيّتهم ضدّ اتفاقيّات أوسلو، وضدّ حلّ الدولتين العنصريّ، وضدّ الاستنساخ المشوَّه للنظام العربيّ الذي خلقتْه تلك الاتفاقيّاتُ العقيمة، وذلك في انتخاباتٍ تميّزتْ بحسب المراقبين الدوليين والمحلّيين بالشفافيّة والنزاهة، غير أنّها جاءت إلى السلطة بطرف غير مرغوب فيه من قِبل إسرائيل والولايات المتحدة وحلفائهما من العرب «المعتدلين.» فجاء الردُّ حصارًا شديدًا على قطاع غزّة خوفًا من انتقال التجربة الديمقراطيّة إلى باقي العالم العربيّ، ولكنْ بصبغةٍ أمريكيّة لاتينيّة سبق أن جاءت بديمقراطيّاتٍ معاديةٍ للإمبريالية ولمصالح الولايات المتحدة الأمريكيّة.

لقد كان النظامُ العربيّ «المعتدل،» بقيادة الحكومة المصريّة المخلوعة، من أشدّ الرافضين لهذه التجربة الديمقراطيّة. فبعد أن قامت إسرائيل بإغلاق معابر غزّة الستة، قام النظامُ المصريّ بإغلاق معبر رفح، البوّابةِ البرّيّةِ الوحيدةِ التي تربط غزّةَ بمحيطها العربيّ والإسلامي. هذا الحصار، الذي شارك فيه النظامُ البائد مشاركةً مباشرة، تسبّب حتى الآن باستشهاد أكثر من ٦٠٠ فلسطينيّ كان يمْكن إنقاذُ حياتهم لو سُمح لهم بالسفر لتلقّي العلاج خارج غزّة من خلال معبر رفح هذا ناهيكم بالخسائر الفادحة في جميع نواحي الحياة الأخرى.

لكنّ الحصار فشل في تركيع أهل غزّة، وهو ما استدعى القيامَ بحربٍ استمرّت ٢٢ يومًا، وأُعلن عنها رمزيًا من قِبل وزيرة الخارجيّة الإسرائيليّة تسيبي ليفني من قلب القاهرة! غير أنّ هذه الحرب فشلتْ بدورها في تحقيق أهدافها، فازداد غضبُ الأنظمة العربيّة «المعتدلة.» وبدأتْ مصر ببناء جدارٍ فولاذيٍّ على طول الحدود مع القطاع، بمساعدة الإدارة الأمريكيّة وإشرافها، وهو يمتدّ أكثر من ٣٠ مترًا في عمق الأرض، من أجل القضاء على الأنفاق التي استطاع الفلسطينيون في غزّة حفرَها لمواجهة الحصار، وتُعتبر شريانَ الحياة الوحيد لأهل القطاع.

❖ ❖ ❖

على أنّ مشاركتنا نحن الفلسطينيين، ويا للأسف، في تكريس مفهوم «ثبات» النظام السابق، بادّعائنا «براغماتيّة» ضروريّة و«فهمًا للواقع» السياسيّ في المنطقة، وبتوجّهنا فورًا إلى القاهرة بعد صمودنا ٢٢ يومًا في وجه العدوان الصهيونيّ، ساهمتْ بشكلٍ واضحٍ في تبييض وجه هذا النظام. إنّ إحدى الخطايا الهائلة للقيادات الفلسطينيّة، بألوانها المختلفة، هي عدمُ قدرتها على فهم معنى الثورة والتحرير، بل التعاملُ مع الولايات المتحدة والغرب (أو «العالم» كما تظنّ) من منطلق أنها حكومة، دولة، سلطة، لا حركة تحرّر. وأصبحت المعادلة كالآتي: أنت تَفْهم سياسيّاً إذا استطعت التعاملَ مع الحكومات الغربيّة والعربيّة «المعتدلة» بعيدًا عن المجتمع المدنيّ والحركات الشعبيّة والمعارضة. ومن هنا قُمعتْ أيّةُ محاولةٍ فلسطينيّةٍ للتضامن مع الشعب المصريّ في بداية الثورة، خلافًا لموقف القيادات الشعبيّة التي أبدت التضامن مع الثورات المصريّة والتونسيّة (والليبيّة الآن) من منطلق أنه من الأجدر أن نتضامن مع مَن يتضامن معنا لا مع من يتحالف مع مضطهِدينا.

❖ ❖ ❖

لم يقتصرْ دورُ نظام مبارك على إغلاق معبر رفح وبناء جدار العار، بل تمادى أيضًا في منع كلّ حركات التضامن الدوليّة التي قام بها نشطاءُ دوليون لكسر الحصار عن غزّة. ونذكر في هذا الصدد وحشيّةَ أجهزته الأمنيّة في قمع مسيرة «غزة نحو الحريّة» و«شريان الحياة.» وعندما يئس المتضامنون الدوليون من النظام المصريّ لجأوا إلى الطريق الوحيد المتبقّي للوصول إلى غزة، ألا وهو البحر. لكن استشهد تسعةُ نشطاء أتراك في ١ مايو عندما هاجمتْ قواتُ الاحتلال إحدى سفن «أسطول الحريّة» التي كانت مبْحرةً صوب غزّة لكسر الحصار، في خطوة جسّدتْ نقلةً نوعيّةً في طبيعة العلاقة المتنامية بين النضال الفلسطينيّ والتضامن الدوليّ، وكَشفتْ أيضًا زيفَ «الأخوّة العربيّة» التي تشدّق بها النظامُ الرسميّ العربيّ.

السؤال الذي طُرح في أعقاب تلك الجريمة كان عن مسؤوليّة نظام مبارك غير المباشرة عمّا حدث. فالحقيقة الواضحة وضوحَ الشمس أنه لو كان معبرُ رفح يعمل بانتظام لكان بالإمكان تفادي زهق هذه الأرواح التسع الغالية. ومع أنّ مجزرة أسطول الحريّة أرغمت النظامَ البائد على فتح معبر رفح بشكل جزئيّ، فقد بقي الحصارُ كما هو. وتلا تلك الخطوةَ قرارٌ إسرائيليّ «بتخفيف الحصار» على غزّة، وذلك من خلال السماح بدخول... الشوكولاتة السويسريّة!

❖ ❖ ❖

كان الشعب المصريّ، بقواعده وحركاته الشعبيّة ونقاباته واتحاداته، يشاهد بأسًى ومرارةٍ ما يحدث لأشقّائه الفلسطينيين في غزّة من أثر الحصار الذي وصفه المبعوثُ الخاصُّ للأمم المتحدة ريتشارد فولك بأنه «مقدّمة لإبادة جماعيّة» شارك فيها النظامُ المصريّ مباشرة. ولكن الشعب المصريّ كان أيضًا مبهورًا بصمود الشعب الفلسطينيّ ضدّ الهجوم والحصار. ولقد أسهم تواطؤ النظام المصريّ ومشاركته في هذه الجريمة في تغيير الوعي المصري تغييرًا نقديّاً. كما أنّ الشعور بكرامة الفرد والأمّة كان في تنامٍ، مستوحيًا شعارَ الثورة السابقة بقيادة جمال عبد الناصر سنة ١٩٥٢ ضدّ الملك الفاسد فاروق والاستعمار البريطانيّ: «إرفعْ رأسك يا أخي فقد ولّى عهدُ الاستعباد!»

ولا ننس أنّ فلسطين تُعتبر عند الشعب المصريّ جزءًا من النفسية الوطنيّة المصريّة. ولو كانت القضيّة الفلسطينيّة مُسحتْ من الوعي المصريّ لكان ذلك قد حدث بعد أن وقّع أنور السادات سنة ١٩٧٩ اتفاقيّة السلام مع إسرائيل ومنذ ذلك الوقت بدأ المسؤولون المصريون بإلقاء اللوم على الفلسطينيين واتهامهم بأنهم وراء مشاكل مصر المستعصية.

❖ ❖ ❖

وتحرّكتْ مصر. وعندما تتحرّك مصر فانّ العالم العربيّ يحبس أنفاسَه ترقّبًا. مصر تحرّكتْ ضدّ القهر والظلم. ولكنّ فلسطين كانت هناك أيضًا في ميدان التحرير. إنّ كلّ قافلة كانت تُمنع من قبل زبانية النظام السابق كانت تساهم في دقّ مسمار في نعش هذا النظام. وحين مُنع ١٤٠٠متضامن في ديسمبر ٢٠٠٩ من الوصول إلى غزّة للمشاركة في مسيرة عالميّة ضدّ الاحتلال، نُقلتْ غزّة إلى قلب القاهرة، واعتصم المتضامنون الأبطال أمام سفاراتهم بالقاهرة. وقد أثار تعاملُ قوات الأمن المصريّة معهم الكثيرَ من الأسئلة لدى المواطن المصريّ العاديّ عن معنى التضامن من خلال العمل الشعبيّ. وفهم الكثيرون من المصريين أنّ التضامن مع غزّة يجب أن يترجَمَ إلى واقع ملموس بعيدًا عن قرارات جامعة الدول العربيّة الفارغة المضمون. وإذا كانت الثورة المصريّة هي التجسيدَ العمليّ للثورة الاجتماعيّة، فإنها تعي تمامًا كذلك أنها جزءٌ من محيط عربيّ يؤثّر فيها ويتأثّر بها: محيط مأسور بالهمّ الفلسطينيّ.

❖ ❖ ❖

السؤال الذي يحتاج إلى إجابة هو عن مستقبل العلاقات المصريّة ـ الفلسطينيّة. فمعبر رفح مفتوح بشكل جزئيّ لعبور بعض الأفراد، لا البضائع والأطعمة والأغذية. وفي كلّ يوم يُرجع العديدُ من المسافرين عبر معبر رفح. وما زال قرارُ عدم منح الفلسطينيين تأشيرة دخول إلى مصر ساري المفعول!

معبر رفح مفتوح بشكل جزئيّ لعبور بعض الأفراد، لا البضائع والأطعمة والأغذية، وما زال قرارُ عدم منح الفلسطينيين تأشيرة دخول إلى مصر ساري المفعول!

إنّ الرأي العامّ الفلسطينيّ داعمٌ للثورات في العالم العربيّ، على الرغم من حظر جميع المظاهرات المؤيّدة لها في الضفّة وغزّة. والمعادلة المفهومة شعبيّاً هي أنّ التغيير الجذريّ في مصر يعني بالضرورة تغييرًا جذريّاً في فلسطين أيضًا. إنّ التضامن المصريّ مع الشعب الفلسطينيّ يجب أن يؤدّي، فورًا، إلى نهاية الحصار القروسطيّ. وفتحُ معبر رفح سيؤدّي تلقائيّاً إلى تلك النتيجة.

لكنْ متى سنرى ذلك؟

أمْ أنّه ينبغي علينا أن «نتفهّم» المشكلات الكبيرةَ التي يواجهها حكّامُ مصر الجدد، في الوقت الذي نتضوّر فيه نحن جوعًا تحت وطأة الحصار؟ وإذا كان الوضعُ كذلك، فلماذا يجب على الفلسطينيين في غزّة دفعُ الثمن؟ وهل كلّ المنافذ المصريّة الأخرى مفتوحةٌ بشكل جزئيّ مثل معبر رفح؟ وهل حين نسأل أسئلةً كهذه نشكّل خطرًا على الأمن القوميّ المصريّ؟!

إنّ الفرحة العارمة التي انتشرتْ في فلسطين بزوال النظام المصريّ السابق اتسمت برسالة واضحة: إنّ مَنْ يَعِش في قصور رئاسيّة، وڤيلات خرافيّة، ويتنقّلْ بين فنادق ٧ نجوم من أجل التفاوض، ويحملْ بطاقات VIP وشعبُه ينام جائعًا، ويتخلّ عن عودةِ شعبه إلى دياره التي شُرِّد منها، ويعشْ على الڤياغرا السياسية، ويُطْلق الجِمالَ والكلابَ والحميرَ على مواطنيه، يَفْقد مكانَه في العالم العربيّ بعد اليوم!

غزّة

حيدر عيد

كاتب وناشط فلسطينيّ (وقد كتب هذه المقالة قبل «المصالحة» بين حركتيْ فتح وحماس ـ الآداب).